الصباح الإسلامية
08
العدد 2436 - السنة التاسعة
الجمعة 1 رجب 1437 - الموافق 8 إبريل 2016
Friday 8 April 2016 - No.2436 - 9th Year

إعداد : ياسر السيد

بناء الجمل في الأحاديث النبوية

عندما قام بعض الباحثين اللغويين بدراسة بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف، وجدوا أنفسهم أمام مجموعة فريدة من الخصائص اللغوية التي استنبطوها - بعد إمعان النظر والتدقيق على مائدة البحث اللغوي -، حتى إنهم قد خلصوا إلى أن هذه الخصائص التي تميز الحديث النبوي الشريف من غيره يمكن أن تكون معيارًا جديدًا، ومقياسًا لغويًا يُسهم في تعيين الحديث الصحيح، والكشف عن الحديث الموضوع بكل جلاء؛ نظرًا لتفرد كلام النبي صلى الله عليه وسلم عن غيره بجملة من الخصائص.

وكان مما جذب انتباههم في دراستهم اللغوية لجملة الحديث هو: تنوع جملة الحديث الشريف، وتشكلها بحسب الموقف الحي.

وهذا ما سماه علماء اللغة المعاصرون «التحليل إلى المؤلفات المباشرة»، وهو أصل من أصول التحليل التي أفرزتها البنيوية وعُرفت بها، ويُقصد بها: تعيين ما تضمنته الجملة الواحدة من مؤلفات مباشرة، أو ما تتضمنه العبارة من جُمل عدة تُسهم كلها في أداء المعنى.

ولا بد لفهم المعنى من تحليل الجملة، أو العبارة إلى مؤلفاتها المباشرة، ومعرفة عناصرها الرئيسة، وعلاقة كلٍّ منها بغيرها حسب قواعد نظم الكلم المعروفة.

فاللغويون الذين فحصوا الحديث النبوي الشريف على مائدة الدرس اللغوي وجدوا أن الحديث الشريف - حسب هذه المزية - تتشكل فيه بُنى الجملة حسب مقتضيات الموقف، أو مقتضيات الحكم التشريعي؛ ومن أمثلة ذلك:

الأول: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أحيٌّ والداك)؟ قال: نعم، قال: (ففيهما فجاهد) متفق عليه.

الثاني: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار) متفق عليه.

الثالث: عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن رجلًا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرِّح الماء يمرُ، فأبى عليه، فاختصما عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: (اسقِ يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك)، فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابنَ عمتك، فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: (اسقِ يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدر) متفق عليه.

الرابع: عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة، يُقال لها: مارية - وكانت أم سلمة وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة - فذكرتا من حُسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم وقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، ثم صوّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شرار الخَلْق عند الله) متفق عليه.

الخامس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن خُلقن من ضِلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فاستوصوا بالنساء خيرًا) متفق عليه.

السادس: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان أحدكم يصلي فلا يَدَع أحدًا يمرّ بين يديه، وليدرأ ما استطاع، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان) متفق عليه.

السابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار) متفق عليه.

ففي هذه الأمثلة من الأحاديث النبوية الشريفة تتنوع أنماط الجملة، ففي المثال الأول جملة استفهامية، وجملة أمرية، وفي جملة الاستفهام سدّ الفاعل مسدّ الخبر، وفي المثال الثاني جُمل تداخلت فيما بينها لتكوّن الدلالة المقصودة من الحديث الشريف، وفيه وقعت الجملة الشرطية موقع الخبر، وفي الحديث الثالث موقف حيّ، وحوار مشهود، تمثلت في جمل تلاقت في حديث واحد، في بناء متصل.

وفي الحديث الرابع ابتدأ بجملة اسمية، جاء المبتدأ فيها اسم إشارة (أولئك)، وخبره جملة شرطية (إذا مات فيهم الرجل الصالح...)، وهذا لا يكون إلا إذا كان الكلام تصويرًا لحكم محدد، معتمدًا على موقف آخر، ومرتبطًا بمعنى بعده، وهكذا يكون القول في الأمثلة الأخرى من الأحاديث، وفي كل حديث عنصر جديد من عناصر التركيب اللغوي، يُشكلها حُكم من أحكام التشريع، أو يُمليها وصف لمشهد من مشاهد الموقف. هذا التعدد في أنماط التركيب اللغوي في أثناء الحديث الواحد، يكاد يتمثل في معظم الأحاديث النبوية الشريفة، ما عدا تلك الأحاديث التي تتسم بالإيجاز الشديد، وما كان منها في جملة الجواب خاصة.

«قد جاءكم بصائر من ربكم»

ذكر الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم يمثل البصائر الخاصة التي أنزلها الله على المؤمنين من عباده فقال: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف:203]، فما معنى (بصائر)؟ وما هي حقائقها؟

تعريف البصائر:

البصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى فاعلة، والبصيرة مأخوذة من البصر، وهو العين، فكأن صاحب البصائر قد بلغ من المعرفة العقلية، والنظر الفكري، والحكمة الثاقبة حدًا يصل إلى درجة المشاهد المحسوس، فانظر إلى جمال هذا المصطلح القرآني (البصائر)، فإنه يغلب على الظن أنه من مبتكرات القرآن، وهو يبني نفوس بني الإنسان، ويمكن تلخيص أبرز الحقائق التي نفهمها من هذه الكلمة القرآنية في الآتي:

الحقيقة الأولى: البصيرة تدل على المعرفة الراسخة التي تؤدي إلى التمييز بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والرشاد والغي: وهذه المعرفة الراسخة تبنى على مصدرين أساسيين:

المصدر الأول: معرفة النصوص الشرعية معرفة واعية:

فكيف يكون مبصرًا أو مفكرًا أو منظرًا أو قائدًا من عشيت عينه عن النصوص الشرعية، أو لم يستطع عقله استيعابها، أو عمي فؤاده عن مراجعتها؟، وقد بين الله ذلك جليا في قوله ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ [يوسف:108]، ولم يتركنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم هملا عن إدراك خطورة هذه الحقيقة حيث قال -فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- : ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا))، كما حذر صلى الله عليه وآله وسلم تحذيرا بليغا من النافهين الذين يتصدرون للكلام في أمور العامة فروى ابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة)) قيل: وما الرويبضة؟ قال: ((الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)).

فأعظم مصدر للبصيرة هي الشريعة المطهرة التي يشكل القرآن الكريم عمادها، ولا يمكن أن تسمى البصيرة بصيرة مطلقا إلا إذا كانت مستمدة من شريعة الله النيرة كما قال ابن كثير: «وقوله: ﴿قل إني على بينة من ربي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي»، والبصائر القرآنية تبني حياة الأمة، وتعيد لها مجدها، وتحقق لها الفلاح والانتصارات النهضوية: فالقرآن هو الذي تضمن البصائر المجيدة التي تحقق الانتصارات في المجالات الشخصية، والتحديات الحياتية الأسرية والمجتمعية، فمن أبصر الحياة ومظهرها:

فالبصيرة -كما يقرر الخليل-: «نفاذ في القلب»، ونورٌ مضيء فيه يمكنه من الاستبصار بحقائق الواقع، أي رؤيتها على حقيقتها، واتخاذ القرارات بناء على ذلك، وبهذه البصيرة يتمكن من الاستفادة من المعطيات الماضية لتقرير الأعمال الحالية، فقد قالوا: البصيرة: العبرة، يقال: أما لك بصيرة في هذا؟ أي عبرة تعتبر بها، ومن ذلك القول المنسوب لقس الإيادي:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر

وبذا فلا بد أن يكون عند صاحب البصيرة معرفة بالحوادث الماضية على حقيقتها ليعتبر بها، ويبني رؤاه وقراراته في الأحداث الحاضرة عليها، وهذا الذي ذكره الله تعالى في كثير من المواضع كقوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [الأنعام:11]، ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: 62]، وبناء على ذلك فإن البصائر تعطي الدراسات الأولية التي تبنى عليها الخطوات التنفيذية.

الحقيقة الثانية: أهم لوازم المعرفة الراسخة وجود الحجة الواضحة عند اتخاذ القرارات أو بناء المواقف:

فمعنى قوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾ [يوسف:108] أي «أدعو إلى الله ببصيرة متمكنا منها.. والبصير: صاحب الحجة لأنه بها صار بصيرا بالحقيقة. ومثله وصف الآية بمبصرة في قوله: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ [سورة النمل:13]، وبعكسه يوصف الخفاء بالعمى كقوله: ﴿وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم﴾ [سورة هود:28]»، وهذا يقتضي أن يمتلك الإنسان البصير حجة واضحة من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وأن يترك التقليد الدال على الضعف والجمود وعدم التفاعل الصحيح مع المواقف، لأن البصيرة «المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل دينا ودنيا بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين». وهذا يقتضي العمل على تنمية البصيرة بكثرة مراجعة مصدر الإبصار (القرآن والسنة) مع التدريب العملي على فقه الواقع وفق فقه النص، وكذلك لا بد من العمل على الاستكثار من المستبصرين أي الإكثار من الدراسين والمراجعين لمصدر الإبصار (النص الشرعي) وتطبيقاته في الواقع (الفقه الواقعي).

الحقيقة الثالثة: تتفاوت البصيرة بين أصحابها:

فالبصيرة كالبصر في التفاوت، فكما أن الرؤية تتفاوت فكذلك البصيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ [ق:22]، فقد يكون أحدهم أقوى إبصارا، وقد يكون غيره أعظم بصيرة، وذلك يرجع إلى كثرة مزاولة الشيء الذي تستمد منه البصيرة وهو القرآن الكريم مع ما يفتح الرحمن للإنسان من الفهم والرأي والإدراك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ [طه:96]، «فالمعنى: علمت ما لم يعلموه وفطنت لما لم يفطنوا له»، فبصر بالشيء حقيقته صار بصيرا به أو بصيرا بسببه، أي شديد الإبصار، فهو أقوى من أبصرت، لأنه صيغ من فعل- بضم العين- الذي تشتق منه الصفات المشبهة الدالة على كون الوصف سجية، قال تعالى: ﴿فبصرت به عن جنب﴾ [القصص:11]، فـ(بصر) هنا تدل على معرفتها المؤكدة لما حدث في قصر فرعون.

الحقيقة الرابعة: البصيرة شرط في الدعوة: فهي شرط في بناء الحقائق الإيمانية في النفس والأسرة، وشرط في بناء الحقائق الإيمانية في المجتمع والحياة كما قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن﴾ [يوسف:108] «وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور».

فالبصيرة بذلك تقتضي التنوير العقلي كما تعني الاستمداد الشرعي فقد قال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿على بصيرة﴾: «هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي».

وبذا فالبصيرة تقتضي معرفة الأمور الشرعية المناسبة للمعالجة الواقعية على حقيقتها، وليس الأوهام والتخليطات مما تجره أفكار ذوي الأسقام، فهي اسم «لما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمر» كما قال ابن زمرك:

يا ابن الذين جمالهم ... وشوالهم شمس الضحى والعارض المتهلل

آباؤك الأنصار تلك شعارهم ... فجبينهم أوى النبي المرسل

فهم الألى نصروا الهدى بعزائم مصقولة وبصائر لا تخذل

الحقيقة الخامسة: البصيرة تؤدي إلى اليقين المطمئن عند اتخاذ القرارات: فقد قال الطبري في قوله تعالى: ﴿على بصيرة﴾: أي « بذلك، ويقين عليم مني به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضا من اتبعني وصدقني وآمن بي »، وهذا اليقين الذي كان مفتاحه البصيرة يؤدي إلى عدم الجزع من تبعات القرارات التي يتخذها المرء ما دامت البصيرة موجودة، فإذا ترتب على القرار ضياع خير مظنون فلن تلعب بصاحب البصيرة الظنون: فقد اتخذ القرار على بصيرة، وإذا ترتب على القرار ابتلاءً بالمواجهة أو الفقد للأحباب فلن يستهلك الجزع الأصحاب: لأن القرار كان على بصيرة.

الحقيقة السادسة: وجود البصائر ليس كافيا لتحريك الضمائر:

فهل وجود البصائر كاف في إحداث التغيير الحسن والتحول الإيجابي الصالح؟

الجواب: لا للأسف! فالبصيرة لا تقتضي الالتزام بمقتضيات ما يراه البصر، فقد يرى المرء الشيء على حقيقته ولكنه يصر على مخالفته لتملك شهوته له، أو لانحلال عزيمته، وضعف إرادته، واتباعه لغيه، ونبذه لرشده.. فقلب الطرف لتعتبر بأقوام وصفهم الله بذلك فقال عنهم: ﴿وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ [العنكبوت:38].. نعم كانوا مستبصرين بمعنى أنهم كانوا عارفين بواقعهم وحقائق ما حولهم ولكنهم لم يقوموا بمقتضيات ذلك.. فهم كانوا -كما يقول الزمخشري-: «عقلاء متمكنين من النظر والافتكار، ولكنهم لم يفعلوا، أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ولكنهم لجوا حتى هلكوا»، يا لضعف الإرادة وتملك شهوة البغي عند الناس، ووحل الكبر الذي يكسوا العباد بالأدناس.. هؤلاء كانت «لهم عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع ﴿فصدهم عن السبيل﴾ سبيل الهدى الواحد المؤدي إلى الإيمان، وضيع عليهم الفرصة ﴿وكانوا مستبصرين﴾».

إنها بصائر القرآن تنير الدروب لبني الإنسان، وتأخذ بيد الحيران إلى المكان الذي يجد فيه السكينة والاطمئنان، إلا أن شرطها ليجد الإنسان نورها، ويشعر بحلاوتها صدق الإيمان، وتربية النفس على قوة الإيقان.. فخذ ذلك في قوله -تعالى ذكره- ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ [الجاثية:20].. اللهم ارزقنا أوفر الحظ من ذلك يا أرحم الراحمين.